منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الديار للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5508) السنة الحادية والعشرون - الأربعاء (13) آب 2023

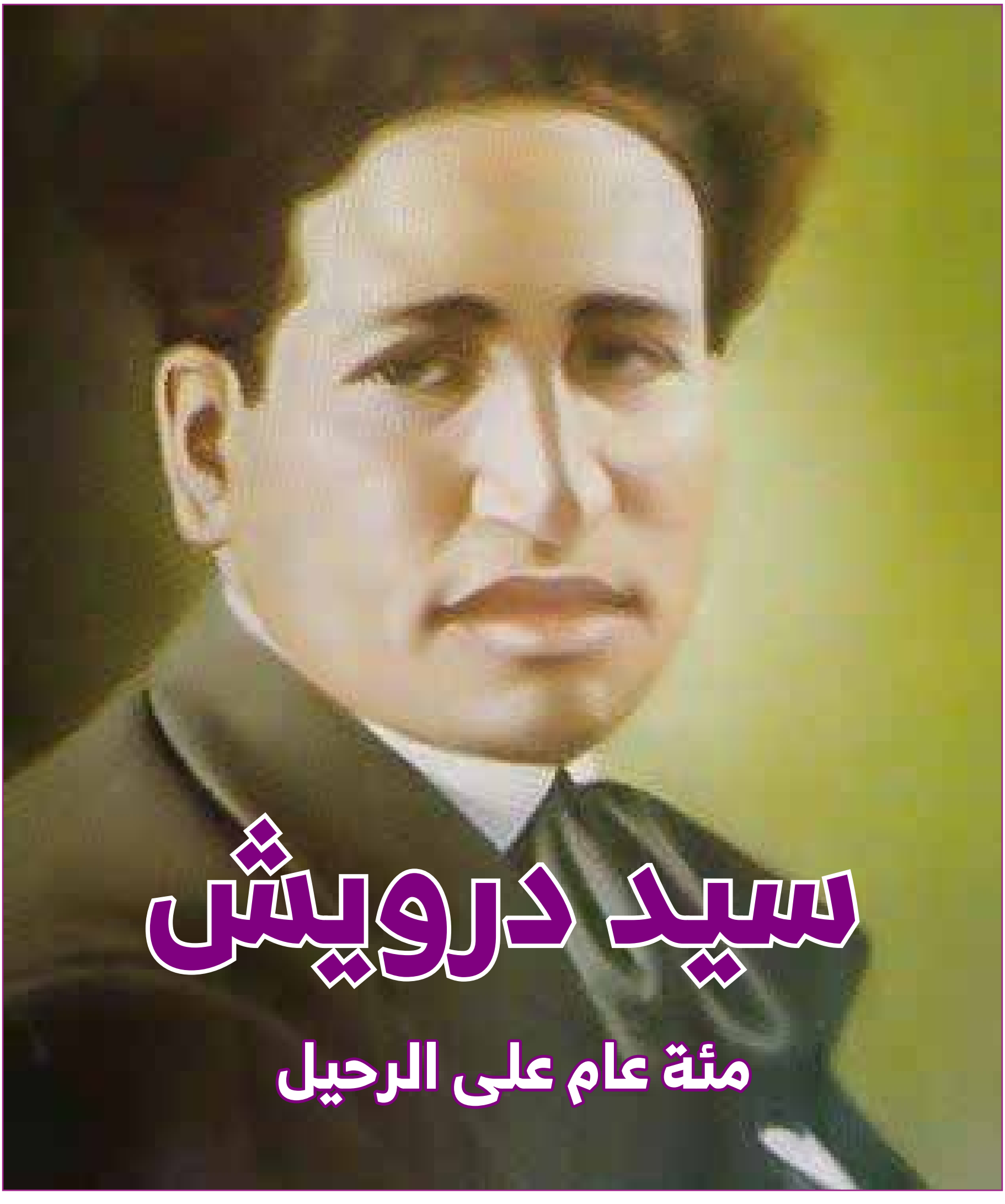

سيد درويش

مئة عام على الرحيل

سيد درويش.. الصوت الخالد

إيـــهـــاب الــمــلاح

- 1 -

أذكر أنني كنت في العاشرة من العمر تقريباً عندما شاهدت فيلم "تزوير في أوراق رسمية" الذي ظهر فيه الفنان إيمان البحر درويش (حفيد سيد درويش)، وهو يقدم مجموعة من أغنياته المدهشة بإيقاع وتوزيع جديد، لكنها في المجمل تحافظ على إرث سيد درويش الإبداعي وتجديده العبقري في الموسيقى العربية.

وبعد ذلك بسنوات، ومع سماع ما تبقى من ألحان وأغنيات وتراث سيد درويش بالجملة، أدركت أنني أمام موسيقار فذ، مؤسس ومجدد ومبتكر، ظهر في مرحلة تاريخية فاصلة قلب فيها صفحة القرن التاسع عشر في الموسيقى العربية المدنية، كما يقول المؤرخ الموسيقي اللبناني فكتور سحاب، وسطّر بعض ما عنده في أولى صفحات القرن العشرين، في كتاب أكمل صفحاته وسوَّد نوتاته الإبداعية موسيقيون التقطوا الخيط منه، ومدُّوه على استقامته، فأبدعوا أعذب الألحان وأجمل الأغاني، وكان على رأس هؤلاء محمد عبدالوهاب، ومحمد القصبجي، وزكريا أحمد، ورياض السنباطي، ولعلِّي أضيف إلى هذه السلالة الذهبية أيضاً بليغ حمدي.

وعلى امتداد قرنٍ كامل، لم تعرف الحياة الموسيقية المعاصرة ملحناً شغل الناس مثل سيد درويش، فقد تخاطفت تراثه جميع أنواع التيارات الموسيقية والسياسية، معتبرة إياه زعيمها الروحي وزعيم المدرسة الموسيقية الملتزمة، والفن الملتزم، كالموسيقيين والمثقفين الذين ينتمون إلى اليسار السياسي، والفئة ذاتها المنتمية إلى الخط القومي، وعلى رغم هذا التجاذب، لم تعرف حياتنا الموسيقية شخصية موسيقية كتب عنها الموسيقيون والنقاد والسياسيون والمفكرون العرب أكثر من سيد درويش. وفي الوقت نفسه، لم تعرف حياتنا الموسيقية ملحناً أذيعت أعماله وقدمت على المسارح أقل من سيد درويش، كما يرصد ذلك بدقة المؤرخ الموسيقي سحاب.

- 2 -

لم يظهر سيد درويش (١٨٩٢–١٩٢٣) في فراغ وإنما ظهر وقد تكوَّن الرعيل الأول من الملحنين والمغنين المصريين، كما يوثق ذلك التاريخَ الدكتورُ كمال مغيث، ومنهم: عبدالرحيم المسلوب، ويوسف المنيلاوي، ومحمد الشلشموني، ودرويش الحريري، ومحمد عثمان، وسلامة حجازي، وعلي القصبجي، وعبده الحامولي، ومن النساء الست ألمظ، وساكنة هانم.

وهؤلاء الفنانون هم الذين مهدوا للمدرسة الحديثة في الغناء والموسيقى، ومع هذا لم يكن هؤلاء الفنانون العظام يعرفون الأغنية بمعناها وموضوعها الذي عرفناه فيما بعد، وإنما كانت كلها "أدوار" و"موشحات" ينتمي بعضها للعصور الوسطى، وبعضها مما ألّفه ولحنه هؤلاء الرواد.

ولكن ساعد غياب مفهوم ومعنى الملكية الفكرية، وعدم وجود آلات التسجيل، على أن تسري تلك الأدوار والموشحات عبر الأثير، يتلقفها كل مؤدٍّ ومطرب وفنان تبعاً لمهارته وقدرته و"سميعته" الخاصة، ولم تكن أغراض هذا النوع من الغناء تتجاوز الغزل العفيف والوصف العفيف أيضاً للمحبوب فضلاً عن الشكوى من صد الحبيب وهجرانه.

ولكن مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، كانت مصر (والعالم العربي كله) تتأهب لمجتمع جديد وثقافة حديثة، ونظام سياسي حديث، كان لابد أنً يواكبها أيضاً "غناء حديث"، وضعت الحظوظ تأسيسه وبلورته على عاتق الفنان العبقري سيد درويش (١٨٩٢–١٩٢٣) الذي عاش صدر شبابه وهو يؤدي الأدوار والموشحات التقليدية التي سبقت الإشارة إليها.

- 3 -

ارتبطت أعمال سيد درويش وروائعه كلها بالروح المصرية الخالصة، وأتصور أن سيد درويش يمثِّل في الموسيقى ما كان يمثله نجيب محفوظ في الرواية، وتوفيق الحكيم في المسرح، وطه حسينٍ في الدراسة الأدبية والنقدية والفكر والثقافة عموماً. وكان سيد درويش واعياً بإرثه الموسيقي، ومستوعباً له، ومنطلقاً منه في كل ما قدمه من تجديدات وإضافات في الأغنية واللحن.

والحال أن سيد درويش مثَّل نقطة فارقة في تاريخ الموسيقى المصرية بخاصة، والموسيقى العربية بعامة، فقد انتقل سيد درويش بالموسيقى العربية من طور "التطريب" إلى ركب "التعبير"، حسبٍ عبارة محمد شبانة، بعد أن كان الغناء العربي غارقاً في المحسّنات البديعية، والتكرار الذي لا طائل من ورائه، ولا مبرر له سوى الرضوخ لإرادة المغني –المطرب– والتكريس لحضوره، فهو سيد الحال والمقام.

ولقد مر سيد درويش بمراحل عدة شكلت إبداعه الفني، أولاها مرحلة التكوين الفني التي استوعبت السنوات الأولى من صباه، وثانِيتها المرحلة التقليدية عند سيد درويش، وهي التي تلَت عودته من رحلته إلى الشام. وثالثتها، المرحلة التي انتقل فيها إلى القاهرة قبل اندلاع ثورة ١٩١٩، وقدمه إلى جمهور القاهرة الشيخ سلامة حجازي.

ولأهمية المرحلتين سالفتي الذكر (الشامية والقاهرية) في إبداع سيد درويش ومسيرته الموسيقية، من المهم إلقاء مزيد من الضوء عليهما.

وفي عام ١٩١٢ سافر سيد درويش إلى سوريا مرة ثانية، ومكث بها حوالي سنة كاملة، امتلأت خلالها جعبته بالكثير من الأغاني والموشحات والكتب الموسيقية، مثل كتاب: "تحفة الموعود في تعليم العود" وغيره، بالإضافة إلى ما سمعه من الشيخ الموصلي، وموسيقيين آخرين.

ثم عاد سيد درويش إلى الإسكندرية فبدأت ينابيع فنه تتفجر وتتطور من "الدور" إلى "الطقطوقة" إلى "الأغنية الشعبية"، مثل: "يا فؤاد ليه بتعشق"، ثم "يا اللي قوامك يعجبني"، و"زوروني كل سنة مرة"، و"يا ناس أنا مت في حبي، وجم الملائكة يحاسبوني"، وموال "يا عين ليه تنظري لاهل الجمال تاني"..

وغير ذلك من الأغاني الشعبية التي كانت سبباً في ذيوع صيته وانتشاره في أوساط الطرب والمغنى بالإسكندرية في ذلك الوقت.

- 4 -

نقطة التحول الكبرى في حياة سيد درويش الفنية كانت في عام ١٩١٧ حين انتقل إلى القاهرة، وتعرف إلى أصحاب الفرق المسرحية المعروفة آنذاك، مثل: عمر وصفي، الذي لحن له سيد درويش مسرحية "الشيخ وبنات الكهربا"، ثم اتفق مع جورج أبيض على تلحين رواية: "فيروز شاه" التي لفتت الأنظار إلى فن سيد درويش وإبداعه، ثم اتفق مع نجيب الريحاني على تلحينٍ رواياته، وأولها رواية: "ولو" التي نجحت نجاحا باهرا.

لكن سيد درويش كان على موعد مع المجد والخلود في كتاب النضال الوطني المصري والعربي، بعد أن صار صوت الثورة الشعبية الكبرى، صوت الأمة الصادحِ لثورة ١٩١٩ التي أنتجت –فيما أنتجت من آثار– الفترة الذهبية في تاريخ مصر الثقافي والفني والإبداعي وهي الفترة التي تمتد من ١٩٢٣ وحتى ١٩٥٢.

وهكذا، ما إن اندلعت الثورة الوطنية الكبرى في تاريخ المصريين التي أشعلت طموحهم وتضحياتهم لمواجهة الاستعمار، وبعث تاريخهم القومي المجيد، وبناء دولتهم الحديثة، حتى مثلت هذه الأغراض التاريخية الطاقة التي ألهمت سيد درويش موضوعات أغانيه الحديثة، وأسهم سيد درويش بأناشيده الوطنية وألحانه الثورية الخالدة، في إذكاء روح الثورة، ليغني لزعيم الثورة المصرية سعد زغلول:

"مصرنا وطنّا
سعدها أملنا
كلنا جميعاً للوطن ضحية".

ويغني للوطن ولأبناء الوطنٍ:
"قوم يا مصري.. مصر دايماً بتناديك"،
و"أنا المصري كريم العنصرين".

وغير ذلك من الألحان التي انتشرت وحفظها الشعب عن ظهر قلب وكان لسيد درويش فضل إبداعها وتوظيفها في خدمة قضايا وطنية مختلفة تمخض عنها الحراك الثوري آنذاك، وكان من هذه الإبداعات ما نادى بتشجيع الصناعة الوطنية وتفضيلها على المستوردة (القلل القناوي)، والتمسك بالوطن وعدم الهجرة منه (سالمة يا سلامة.. رحنا وجينا بالسلامة).

ولا تغفل أغنياته وألحانه مساندة فئات المجتمع المصري، بكامل مكوناته وعناصره وشرائحه الطبقيةٍ والاجتماعية والفئوية، والتعبير عنها غناء ولحناً، كالموظفين والبوستجية، والسقايين والمراكبية، والفلاحين والعمال والصنايعية، ويغني أيضاً للجرسونات والشيالين، والعربجية.. إلخ.

ومنها أيضاً نقد سياسات سلطة الاحتلال الإنجليزي في (شد الحزام يا سيد) التي تنتقد قيام الإنجليز بمصادرة وسائل النقل، ونقد الغلاء (استعجبوا له يا أفندية... لتر الجاز بروبية!).

ولا يفوته أيضاً أن يغني للمرأة ونهضتها، ويحضّها على المشاركة في النضال الوطني والدفاع عن الوطن:
"بنت البلد يا ولد محلا قيافتها، ودا وقتك دا يومك يا بنت اليوم"،

ويغني للوحدة الوطنية ومناهضة الطائفية:
"إيه نصارى ومسلمين قال ايه ويهود
دي العبارة أصل واحد م الجدود
اللي الأوطان بتجمعهم
عمر الأديان ما تفرقهم".. إلخ.

ولا ينسى في خضم هذه الحماسة الملتهبة الحبَّ والعواطف الجياشة، فيغني: "أنا عشقت"، و"أنا هويت"، و"خفيف الروح بيتعاجب"، ثم يتحفنا برائعته الخالدة: "بلادي بلادي لك حبي وفؤادي"، التي صارت النشيد الوطني المصري. نعم. كانت هناك عبقريات تقف خلف تلك الكلمات الملهمة كيونس القاضي، وبديع خيري، وبيرم التونسي، ولكن تظل عبقرية سيد درويش هي التي صاغت من هذا كله "الغناء المصري والعربي الحديث".

- 5 -

جدد سيد درويش في موضوعات الأغنية العربية، فإن تجديداته الحقيقية وإضافاته المهمة كانت في مجال الموسيقى والتلحين، حيث يعد سيد درويش أول من أدخل إلى الموسيقى العربية التجديدات التي عدّ منها سليم سحاب عشرين إضافة، منها:

"الديالوج الغنائي" الذي دخل الموسيقي العربية في العشرينيات من القرن العشرين على يد صفر علي، ولكن دخوله الكبير في موسيقانا كان على يد سيد درويش في مسرحية "العشرة الطيبة"، وديالوج: "على قد الليل ما يطول" الذي ختمه بمقام العجم لأول مرة في الموسيقى العربية التي كانت تلزم الملحن بختم اللحن على نفس المقام الذي بدأ به. وكذلك التصوير الموسيقي أو التصوير بالموسيقى مثل دور "يا اللي قوامك عاجبني"، وفيه تتدرج كلمة قوامك على السلم الموسيقي إلى أعلى من درجته الأساسية ثماني درجات حتى تصل إلى الجواب، ومثل "علشان ما نعلا ونعلا ونعلا لازم نطاطي نطاطي نطاطي".

وسيد درويش هو أول من أدخل الجدلية الموسيقية في التلحين العربي، أي الجمع بين المشاعر المتناقضة مثل "اتمختري يا عروسة" من مقام "حجاز كار كورد"، الحزين وهي تغني في فرح، ولكن العروس تزف إلى من لا تحب.

وهو أيضاً أول من أبدع "فن المونولوج"، وهو الغناء الفردي الذي يعتمد على السرد اللحني دون إعادة جملة موسيقية سبق استعمالها، وهو مُستلهم من فن "الآريا" في الأوبرا الغربية التي تأثر بها سيد درويش، وكان يدمن حضور عروضها مثل "والله تستاهل يا قلبي".

وكذلك استعمل سيد درويش الآلات الغربية، مثل "البيانو" و"التشيللو"، في تطورات موسيقية فنية كثيرة أخرى، عدَّدها سليم سحابً في دراسته عن سيد درويش بعنوان "البدايات التأسيسية للموسيقا العربية: سيد درويش نموذجاً".

- 6 -

أما دور سيدٍ درويش في مجال التمثيل والأوبرا فلا يقل أيضاً عن دوره في مجال الموسيقى بكل فنونها، فقد أضاف إلى ما سبق، تلحين الأوبرا ومنها: أوبرا "شهر زاد" عام ١٩٢٠، وأوبرا "العشرة الطيبة" لمحمد تيمور، وأوبرا الباروكة وهي معربة عن أوبرا لاما سكوت لاروان، والفصل الأول من أوبرا "كليوباترا وأنطونيو"، التي أكملها محمد عبدالوهابٍ.. إلى غير ذلك من الألحان التي بلغت ٣٢٦ عملاً موسيقياً، منها ٦٦ أهزوجة (طقطوقة)، وعشرة أدوار، وسبعة عشر موشحاً إضافة إلى ٢٣٣ لحناً في ثلاثين (أوبرا) مسرحية غنائية.

وأنشأ سيد درويش فرقة للأوبرا قدمت أوبراته الثلاث: "شهر زاد"، و"الباروكة"، و"العشرة الطيبة".

وأخيراً... كُتب عن سيد درويش الكثير من الدراسات والكتب، ولاسيما الكتب التي أصدرها ابنه الموسيقي حسن درويش، وتوجد جمعية باسم جمعية أصدقاء موسيقى سيد درويش بالقاهرة، وحظي بألقاب كثيرة، أشهرها: فنان الشعب.

• جريدة الاتحاد الاماراتية

سيّد درويش في مئويته:
حياة مضطربة وريادة موسيقية

بـــــول شـــــاوول

إنّها مئويّة سيّد درويش (١٨٩٢ – ١٩٢٣) الذي رحل في عزّ عطائه، وتجاربه، وإنجازاته الموسيقيّة التي أحدثت ثورة في مفهوم الموسيقى العربية، ومصادرها، وطابعها وإيقاعاتها ودورها. ثورة سيّد درويش تشبه ثورة الشعر الفرنسي، رامبو في الشعر، أو موزارت وبيتهوفن في الموسيقى السيمفونيّة. لكنه أراد بنفسه أن يحدّد لقبه، فقال "أنا لا أقل عن ڤيردي، أنا ڤيردي مصر".
إنه الانقلاب الشامل بتفاصيله ومراحله الذي يشمل النهضة الفكرية والأدبية في مصر، لكنها تختلف عن مجمل معطياتها.
لم يتلقّ العلوم الموسيقية على أحد واضطر في آخر أيامه إلى اللجوء إلى أحد أصدقائه لكتابه ألحانه. فنبوغه وثقته بنفسه حققا الانقلاب الشامل في الموسيقى العربيّة، فقد نفخ في موسيقى بلاده روحا جديدة كل الجدّة، واستطاع أن يرتفع بها إلى مستوى يتمكن معه التعبير عن عواطفه ونزعاته ونزقه وغرابته.
في عام ١٨٩٢ كان عهد ولاية اللورد كرومر قائما. مع ذلك فإن الزعيم مصطفى كمال وهو في الثامنة عشرة من عمره كان يترأس حزبا سياسيّا ويقوم بجولات في فرنسا يحاضر في أثنائها للمطالبة بحقوق بلاده. كما رفع أصحاب العمامة رؤوسهم، وتابع الشيخ محمد عبده بجرأة نادرة عمله الإصلاحي في جامعة الأزهر قلب العالم الإسلامي. غير أنه لم يحن آنئذ للطبقات الدنيا من الشعب الوقت، لكي تتأثّر بالموجات المتعاظمة من الأفكار التقدميّة التي تطلقها خطب رؤساء الأحزاب. لكن هذا لا يعني خلوّ مصر من وجود فرق فنية أجنبيّة بصورة متواصلة على أراضي البلد وخصوصا في الإسكندريّة.
سيّد درويش رأى النور في هذا الوسط وبعد سنوات أرسله أبوه (وهو نجار) إلى مدرسة في الحيّ، ثم أدخله المعهد الديني في الإسكندريّة، وهنا بدأت تظهر مواهبه الموسيقية المبكرة ليصبح بعد مدة من الزمن مؤذنا لمسجد الشوربجي.

عبء العائلة

تزوّج في السادسة عشرة ليتحمّل عبء إعالة أمه وأخواته وامرأته التي ما لبثت أن حبلت منه. في تلك المرحلة بدأ يتردّد إلى بعض الحانات الوضيعة بلباس رجال الدين، وبصحبة موسيقيين أصبح المخدر وسيلة لديهم لاستدرار وحيهم.
وبعدما عجز عن إعالة عائلته بالخمسة قروش التي كان يحصل عليها كل ليلة في هذه الأمكنة، قرّر أخيرا البحث عن عمل خارج الحقل الفنّي. وما لبث أن وجده في إحدى ورشات البناء، وأخذ يغنّي على الصقالات ليسلّي نفسه، وإذا بوكيل الورشة يلاحظ زيادة في إنتاج العمّال الذين كانوا يزدادون نشاطا لدى سماع غنائه، وانتهى الأمر بهذا الوكيل أن أعفاه من الأعمال اليدويّة شرط أن يداوم على الغناء. وهناك اكتشفه أخوان من عائلة عطالله وأعجبا بصوته: الأول كان ممثلا والثاني مدير مسرح، وكانا يعدّان للسفر إلى بلاد الشام وبيروت خاصة، وهكذا دخل درويش عالم المسارح. لكن الجمهور اللبناني، كما تقول بعض المصادر، لم ينسَ الشيخ سلامة حجازي الذي أثار صوته حماسة الجماهير في سوريا وبيروت ومصر. ولم يلبث الأخوان أن أفلسا فاضطر سيّد درويش في أواخر ١٩٠٩ أن يبرق إلى عائلته لترسل إليه مالا يمكّنه من العودة إلى الإسكندريّة.
لقد كان الحكم العثماني يسمح باختلاط الأجناس والبشر مما يجعل الأساليب الموسيقيّة الشرقيّة متمثلة في بيروت وقد تعلّم درويش كثيرا من هذه المدينة.
لدى عودته اضطر من جديد للعمل في المقاهي، لكنه ما لبث أن قصد سوريا من جديد وأمضى فيها سنتين، ولقي نجاحات مهمة، عاد بعدها إلى بلاده.

عندها أصبح سيّد درويش فنّانا كبيرا ولم يزل يعمل في بارات سيّئة السمعة، لكن المقاهي الكبرى التي ترتادها نخبة من الناس راحت تتجاذبه وأصبح في مصاف فنّاني القاهرة.
هنا بدأ يظهر تميّزه واختلافه عما كان سائدا في الموسيقى والغناء في مصر: فحطّم درويش "التخت التركي"، وبدأ يظهر في غنائه عدم اكتفائه بالتطريب بل بإيجاد صلة بين الموسيقى والغناء، لتفرض نفسها على المغنّين الأوروبيين وكانت قبله حالات مفقودة، حيث قصيدة حزينة تُغنى بلحن راقص بل وحيث لا يهتم بالكلمات إلا للتمتع بالجمال المجرّد للغة ومن خصوصيتها التأثير في النفس.
وقد وضعت هذه الثورة (وهي ثورة بكل معنى الكلمة) الموسيقى على مستوى إن لم يكن فنيا فهو على الأقل أشدّ روحانية، ووضعت الأسس لنهج موسيقي "مصفّى" لم يلبث أن صار مدرسة هي مدرسة سيّد درويش. ثم انساق في تيار وطني عمّ البلاد. فتارة يستوحي شعارا مأخوذا من مصطفى كامل "بلادي بلادي لك حبّي وفؤادي" (صارت النشيد الوطني لِمصر)، أو قصيدة ضجّت بها الصحف العربية كقصيدةَ "مصر والسودان" التي تطالب بالوحدة بين البلدين، ثم لا يلبث أن يعود إلى التغني بجمال إحدى صديقاته جليلة الرائعة.
أحسّ أنه وجد النهج اللازم لإرضاء الجمهور الإسكندري وهو نهج جديد، ومع ذلك فإن أساليب تعبيره تبقى إلى حدّ ما اصطناعية وتخته يتألف من ستة موسيقيين يعزفون على الكمان والقانون والعود والصنوج، تصحبهم جوقة من الأصوات النسائيّة.

جورج أبيض والمسرح

في سنّه الخامسة والعشرين أخذت شركات تسجيل الأسطوانات تشجّعه على القدوم إلى القاهرة وكان يتوق إلى مغادرة مسقط رأسه ليتخلص نهائيا من المقاهي. في هذه الأثناء، تعرّف إلى جورج أبيض أحد كبار ممثلي المأساة في نهضة الأدب العربي الذي عرفت عام ١٩١٧ أن الدراما وحدها لم تعد تشد حماسة الجماهير الشرقيّة، فاستمع إلى أغانيه، فعرض عليه الغناء بين فصول مسرحيّة "لويس الحادي عشر" فقوبل بهتافات صاخبة غير راضية. وأصيب أبيض بالخيبة. وفهم أنه لتكون التمثيليات مقبولة يجب أن تكون مرصّعة بالموسيقى، فقدم مسرحيّة "فيروز شاه" على أحد مسارح القاهرة بعدما عهد تلحينها إلى سيّد درويش، لكنها فشلت.
في هذه الأثناء، نزع السيّد درويش العمامة واعتمر الطربوش، واستبدل الطقم الإفرنجي مع سلسلة الساعة ولياقة القفطان لكي يفرض شخصيته على العاصمة الفنية. لكن سكنه كان بباب الحصن في بيت وضيع تقاسمه مع موظف من موظفي المكتبة الوطنية؛ فها هو الآن يغني في كازينو البوسفور، وعرف أن طريقة قد تحددت.
في هذه المرحلة كان الشعب يحسّ بنزعة مجنونة للتنفيس عن كربه (قانون الطوارئ، ارتفاع الأسعار)، ليجد مبتغاه في الأغاني الخلاعيّة والروايات الهزليّة التي كانت تقدّمها بعض المسارح الصغيرة (في أيام نجيب الريحاني وفرق الكسار وأولاد عكاشة وسلطانة الطرب منيرة المهديّة).
في الحادية والثلاثين من عمره كان يهمّ بتنفيذ مشروعه وقد أدّى شغله عليه، بالإضافة إلى نهج حياته "الجهنمي" وحالته الصحية المضطربة،إلى تقويض حياته وإلى موته المبكر.
بدأ يكتب لكل هذه الفرق بذهنية رفع مستوى الشعب الثقافي بالأوبريت المصريّة. وهنا التقى الشاعر الزجليّ بديع خيري الذي يعبّر بقصائده عن مطالب رجل الشارع وحاجاته في عبارات يزيدها سيّد درويش توترا بالموسيقى. فأغانيه باتت تارة تمثل السقّا، وتارة الصانع الصغير، أو العامل الذي ينوء تحت عبء العمل المرهق، ومرّة الموظف الذي اشترك في الإضراب العام ١٩١٩ فوجد نفسه محروما من راتبه الضئيل.

وقائع صغيرة

كان يعمل على نصوص مكتوبة معظم الأحيان، لكن وقائع يومية صغيرة من حياة الناس تكفي لإلهامه. وفي بولاق سمع صوت بائع جوال فأنصت إليه يغني بلهجة مصر العليا "عجائب غرة". وهنا دخل إلى الأوساط الأدبيّة ووجد نفسه في عداد أسماء المسرح الشرقي وتردد بصورة مستمرة على حفلات الأوبرا في القاهرة حيث شاهد عروض الفنانين الأجانب. عام ١٩٢١ أصبح دخله هائلا ٣٠٠ جنيه في الشهر. وعندما طلب منه الأخوان عكاشة تلحين تمثيليتهما "شمشون ودليلة"، التي ستعرض على مسرح الأزبكيّة وطلب ١٠٠٠ جنيه بلا زيادة ولا نقصان، رفضا طلبه. ولم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين عندما أصابته هذه الشهرة. واعتزم تأليف فرقته الخاصة التي قدم بواسطتها "العِشرة الطيّبة" لمحمود تيمور، لكنها لم تنل حظوة الجمَهور، ثمّ قدّم "شهرزاد" لبيرم التونسي الذي ألهب الجماهير بعد عودته من المنفى بأغانيه الوطنية مثل "اليوم يومك يا جنود" ثمّ قدم "البارود" وهي الترجمة العربية لمسرحيته "لا مسكوت" لإدمان أدوران. غير أنه كان سيّئ الإدارة، فعلى الرغم من شهرته ومن إنتاجه الغزير (عشرون أوبريتا) لم يعد يملك في آخر أيامه سوى عوده وفونوغرافه العتيد، وعلى الرغم من فشل مشروعه التمثيلي انصرف نحو الكتابة في الصحافة تحت إمضاء "خادم الموسيقى".
في الحادية والثلاثين من عمره كان يهمّ بتنفيذ مشروعه وقد أدى شغله عليه، بالإضافة إلى نهج حياته "الجهنمي" وحالته الصحية المضطربة (فهو لم يتوصل إلى التخلص من إدمان المخدر الذي اعتاده منذ صباه) إلى تقويض حياته وإلى موته المبكر.
لقد كشف سيّد درويش ببساطة وعفويّة مشاعر عصره وآلامه وآماله ليس فقط لأقليّة مثقّفة بل لشعب بأجمعه.
مع ذلك فإن عظمة سيّد درويش تنبثق من حقل آخر. ففي بلاد ما زالت الأغنية فيها التعبير الأكمل عن الروح البشرية كان عمل الشيخ سيّد درويش عمل تجريد وتنقية.
فلقد حدد هذا الإباحي الثائر والمحبّب الطريق لرفع مستوى بلاده الأخلاقي.
وقد دفن سيّد درويش في مقابر المنارة بالإسكندرية. وكُتب على شاهده:
(يا زائري لا تنسني من دعوة صالحه وارفع يديك إلى السماء واقرأ لروحي الفاتحه)

• عن مجلة المجلة

المتمرد سيد درويش أول من ترجم الأحاسيس الشعبية إلى ألحان

سوسن الأبطح

حين قيل لسيد درويش إن رأسه يشبه رأس فيردي، أجاب: "أنا فيردي مصر". وهو قول له خلفياته. فقد روى توفيق الحكيم في كتابه "فنان الشعب": "رأيت سيد درويش بعيني، يأتي معنا إلى تياترو الكورسال ليشاهد جوقة الأوبرا الإيطالية، تعرض توسكا، ومدام بترفلاي لبوتشيني، والبلياتشو لليونكافالو". فقد تأثر الرجل بما كانت تقدمه الفرق الغربية التي تفد إلى مصر من أوبرات. صحيح أنه لم يحقق حلمه بدراسة الموسيقى في إيطاليا لأن الموت عاجله، غير أن فضوله وعصاميته، كانا له سنداً عظيما.

وأهمية كتاب "سيد درويش المؤسس" لمؤلفه فكتور سحاب، الذي صدر هذا الأسبوع بفضل أول تعاون مشترك بين "دار نلسن" في بيروت، و"دار ريشة للنشر والتوزيع" في مصر، أنه يعيد الاعتبار لعبقري، لا بل لأسطورة موسيقية أحدثت ثورة فنية عربية، رغم عمره الفني القصير للغاية والذي لم يتعد الست سنوات.

مغني العمّال

كانت عائلة سيد درويش تحضّره لأن يصبح شيخاً مقرئاً، لكنه سرعان ما خلع العمامة والقفطان، وعمل مغنياً، في ورشة بناء، يحض العمال على الاجتهاد. وصادف أن سمعه سليم عطا لله فصحبه معه إلى بلاد الشام عام ١٩٠٩. وكان لا يزال في السابعة عشرة.

لم يلق النجاح الذي يستحقه، لكنه أفاد وتعلم على موسيقيين كثر: "حفظت التواشيح والضروب الموسيقية القديمة ثم أناشيد الكنائس". لكن رحلة ثانية إلى بلاد الشام، كانت له الفاتحة لنجاحات، سيعود بعدها إلى مصر قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقد ذاع صيته، مما سهل عليه الانطلاق، لكن كل ما يعثر عليه في تلك الفترة يدلل على أن الاهتمام به، ومكافآته كانت دون ما يستحق، إلى أن كان لقاؤه بالشاعر بديع خيري، ومن ثم أحداث ثورة ١٩١٩. وعمله مع نجيب الريحاني.

موهبة سيد درويش الكبيرة، وقدرته الفائقة على العمل وتأليفه المقطوعات الاستعراضية، ومن ثم تلحين المسرحيات وكان أولها "كله من ده"، كل هذا جلب عليه خيراً كثيراً، وتقديراً من الناس، بحيث أحلوه في المرتبة مكان سلامة حجازي. لكن سيد درويش المبذر، الذي صرف ما في الجيب، منتظراً أن يأتي ما في الغيب، عاش أيام فقر مدقع، نتيجة سلوكه هذا ومات ولم يخلف وراءه "إلا عصاه والعود ورزمة من الأوراق التي دون عليها أغنياته، وولدين هما محمد البحر وحسين درويش". وهو الذي تزوج في عمره القصير، أربع نساء، لم يدم زواجه من إحداهن سوى يوم واحد.

العبقري المظلوم

المحزن في حياة سيد درويش الذي توفي وهو لا يزال في الحادية والثلاثين، كمّ الظلم والألم اللذين تعرض لهما رغم الخدمة الاستثنائية التي أسداها للموسيقى العربية. صاحب أجمل الألحان والمغني والممثل، هو بحد ذاته ثورة، في كل ما فعله خلال حياته الفنية. وضع عشرة أدوار تعتبر جزءاً خطيراً من تراثه الفني، وهي ليست تجديداً خالصاً، كما يظن البعض، وهنا أهميتها، بل استفاد من تطوير من سبقه، وبنى عليه، مركزاً على مضمون اللحن وأسلوب التعبير.

ويقدم الكتاب تفاصيل فنية موسيقية حول تفاصيل التجديدات المثيرة التي أحدثها سيد درويش، والألحان التي تركها ولا تزال تهزّ الوجدان، وأهمية موشحاته، وذكاء الطقاطيق التي عرف بها حتى قيل إنه وضع ست وستين طقطوقة، كثير منها أصابت شهرة واسعة مثل "يا عزيز عيني"، و"أهه ده اللي صار"، و"يا بلح زغلول"، التي قصد بها سعد زغلول، و"زوروني كل سنة مرة".

لحن سيد درويش مائتين وثلاثاً وثلاثين أغنية مسرحية، في ثلاثين تمثيلية غنائية واستعراضاً وأوبرا. كما كتب الأوبريتات التي اعتبرت تطويراً عظيماً للمسرح الغنائي، الذي سينحسر في مصر بعد وفاته. قال عنه عاصي الرحباني: "فنان متمرد، أول من ترجم الأحاسيس الشعبية إلى قوالب موسيقية سليمة، وأول من لحن الأوبريت كما يجب أن تلحن... وأول فنان يعمّ فنه الشرق، أيام كانت لا تربطه أي وسيلة إعلامية. إنه رائد جيله، وأستاذ مدرسة عريقة، وفنان شعبي كبير جداً".

فنان الشعب وضميره

ودرويش هو أول من استعمل آلات الأوركسترا الغربية في الموسيقى العربية، مما أعطى رونقاً خاصاً لموسيقاه المسرحية. ويقال إن "ثمة تناقضاً، بين طابع كثير من مؤلفات درويش المسرحية، ونوازعه إلى الطرب العربي الأصيل". لكن الأرجح أن سيد درويش في الموسيقى كما كل التوفيقيين في تلك المرحلة، الذين حاولوا المصالحة بين الجديد الوافد الذي أبهرهم، والقديم الذي لم يريدوا التخلي عن أصالته وعمق جذوره. وفي الكتاب تفاصيل وافية لمحبي الموسيقى حول تقنيات سيد درويش الموسيقية، وتجديداته وإضافاته.

لكن ما صنع شهرة الرجل فعلاً، هي الروح الشعبية لأغنياته التي كان يجمعها من أفواه الناس، وأصرّ على العيش بينهم، وأن ينهل من معينهم، لا يفارق الشارع والسوق، والعمّال.

وهو ما صنع، تلك النزعة الحماسية في ألحانه، حتى لنشعر أن جميع أغنياته فيها نبرة وطنية، منها ما يشتكي من الغلاء، ويعترض على الظلم، ويساند الفقراء، ويحضّ المرأة على النهوض: "ده وقتك ده يومك يا بنت اليوم، قومي اصحي من نومك بزياداكي نوم".

عبّرت أغنياته عما يجول في خاطره، رغم أنه لم يكن كاتبها في أغلب الأحيان، بل كان يفضل أن يطلب تأليفها عن موضوع عزيز على قلبه، أو يختارها من أشعار جاهزة.

أكثر من ذلك أن درويش أعلى من شأن الملحن، وكبح ميل المغنين، كما شاع في القرن التاسع عشر، للارتجال والتصرف والتطريب الفطري، وألزمهم باحترام ما يضعه من ألحان، احتراماً لعمله. هكذا وضع الملحن في المرتبة الأولى بعد أن كان كاتب الكلام هو الأولى بالالتزام بما يقدمه للمطرب، فيما يشعر، هذا الأخير، أن بمقدوره التصرف في اللحن على هواه.

نحت صوره بالموسيقى

ويلفت الكاتب إلى أن الكلام على درويش يفتقد كثيراً للمعرفة الموسيقية، لذلك فإن رأي أحد أنجب تلامذته هو محمد عبد الوهاب، يبدو في غاية الأهمية "إن الشيخ سيد هو الذي فصل الموسيقى العربية عن الموسيقى التركية، وأبرز الملامح المستقلة في الموسيقى العربية". الشيخ سيد هو الذي أنشأ التعبير الموسيقي والتصوير بالموسيقى والغناء ويعتبر دور "أنا هويت وانتهيت"، الذي نال شهرة كبيرة، "هو مبتدأ التعبير التمثيلي الانفعالي أو الدرامي في الغناء العربي".

نحت درويش بألحانه صوراً ومشاعر، كأنه يحكي بموسيقاه قصصاً. وهو ما أثمر بعد ذلك الحوار الغنائي الذي يعتقد أنه دخل الموسيقى العربية مع ديالوغ "على قد الليل ما يطول" من رواية "العشرة الطيبة". ثم أدخل المونولوغ على الموسيقى العربية من خلال "والله تستاهل يا قلبي" عام ١٩٢٠. وهو أول من اعتمد استخدام الأصوات أو الألحان المتعددة والمتزامنة، أي ما يسمى الـ"بوليفونيا".

حفلات تأبين عديدة أقيمت، لسيد درويش بعد موته عام ١٩٢٣ إلا أن أغنياته طويت في غالبيتها، وأريد لها أن تخبو، ولم تعد إلى الحياة، إلا بعد ثورة ١٩٥٢. حيث تم العمل على إحياء أعماله، وتدوين موسيقاه وتأديتها. ومع ذلك، بقي مظلوماً هذا الكبير، فتجديده أسيء فهمه، وأحياناً نظر إليه بدونية، أو بشيء من الحسد.

الفنان الشامل

من مواليد الإسكندرية عام ١٨٩٢، السنة عينها التي ولد فيها موسيقي كبير آخر هو محمد القصبجي ونجيب الريحاني الذي سيتخصص بعد ذلك في تقديم مسرحيات سيد درويش الغنائية، وكذلك شريكه الأقرب بديع خيري ومحمود بيرم التونسي. من أسرة فقيرة، مات والده النجار وهو لا يزال في السابعة، أرسلته أمه إلى الكتّاب ثم إلى المدرسة، لكن سرعان ما استهواه الغناء.

العرب يرددون أغنياته مثل "سالمة يا سلامة" و"زوروني كل سنة مرة" و"الحلوة دي" و"طلعت يا محلا نورها"، و"أنا هويت"، ولكن يغيب عن الناس فهم قدرته الاستثنائية على الاستفادة من التراث وتطويعه، ومدّ جسور هائلة بين الشعب والأغنية التي تخترق الضمائر وتشعل الوجدان.

وكما يقول في الكتاب سليم سحاب "ماذا عن الأوبريتات الثلاثين التي لحنها سيد درويش، ماذا عن أغنياته للطوائف الاجتماعية المختلفة؟ ماذا عن الأوبرا التي شرع في تلحينها؟ وماذا عن عشرات الطقاطيق والموشحات والأدوار؟ هنا لا تجد جواباً".

درويش هو "أول موسيقي عربي شمولي من ناحية معرفته بالمدارس الموسيقية العربية الهامة خارج مصر". لكن إنجازه الأهم هو تخليص الموسيقى العربية نهائياً من اللكنة الموسيقية التركية التي سيطرت عليها، بوقت وجيز، وكان يحتاج عشرات السنين. أنجز هذا بفضل إصغائه لغناء الناس بمختلف فئاتهم وطبقاتهم ومهنهم، معتبراً أنهم النبع الصافي الذي ينهل منه. عن غناء العمال يقول سيد درويش: "أين نحن من هؤلاء العمال؟ إنهم المؤلفون والملحنون إنهم الطبيعة، والطبيعة فوق الفن".

• عن صحيفة الشرق الاوسط

سيد درويش وتطوير الموسيقى العربية

الحديث عن سيد درويش لا يكاد ينتهى إلا ويبدأ من جديد، فإن الجو الذى خلقه سيد درويش بموسيقاه أثر بعمق فى وجدان الناس واستمر أثره لعشرات السنين ولا زالت موسيقاه تحدث نفس الأثر كلما سمعت ولا يمل المرء من تكرار سماعها إذ أنها تميزت تميزا فريدا فى الأصالة وحسن التعبير.الحقيقة هى أن فن سيد درويش جزء من تراث أمة تعتز بمبدعيها كما تعتز بأصالتها، وهو جزء من كفاح شعب متصل من أجل آمال تحققت وآمال لم تتحقق بعد.

عـــادل الـهـاشـمـي

صحفي راحل

ها نحن نكتب عن سيد درويش بعد مرور أكثر من ثمانين عاما على وفاته، وكاتب هذه السطور قد ولد بعد وفاة سيد درويش، فما الذى يدعونا إلى ذلك؟ سنحاول هنا أن نجيب على هذا السؤال.

كتب كثيرون عن سيد درويش وظهرت أعماله فى الإذاعة والمسرح والسينما والتليفزيون بعد وفاته بسنوات طويلة، وهو هنا يختلف عن غيره من الفنانين الذين استمرت أعمالهم بعد وفاتهم، إذ أن موسيقاه قد ظهرت ثانية بعد فترة طويلة من التوارى زادت على ثلاثين عاما أعقبت وفاته المفاجئة عام ١٩٢٣، فكيف تعود وبقوة بعد هذا الانقطاع الطويل وتنتشر فى أجيال لم تعاصر سيد درويش ولم تسمع أعماله قط؟

صدر أيضا عن سيد درويش عديد من الكتب والمقالات، ونحاول نحن هنا التركيز على الجوانب الفنية فى أعماله أكثر من أحداث حياته

ترى ما الذى جعل من سيد درويش فنانا على أى حال؟

ولد سيد درويش مرتين، الأولى هى ولادته الجسدية لأمه وأبيه فى الإسكندرية عام ١٨٩٢، والثانية هى ولادته الفنية لوطنه وأمته فى بالقاهرة عام ١٩١٧.

فى أسرة بسيطة فى أحد أحياء الإسكندرية العريقة وهو كوم الدكة ولد الطفل سيد درويش، وحى كوم الدكة هذا حى غريب فى كل شيء، فهو على ربوة عالية فى وسط المدينة تطل على أحياء الوسط الراقى بينما تفصله عن ذلك الوسط حواجز اجتماعية واضحة، كوم الدكة ليس به مدرسة، فقط كتاب صغير لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم بسيط، بينما فى الخارج مدارس أجنبية ومسارح وشركات وجمعيات خيرية دولية نشطة، والحى كما لو كان قرية فى وسط المدينة.

انتمى سيد درويش مباشرة إلى الاثنين معا، حيه الشعبى ومدينته التى جمعت ثقافة أوربا كلها، وهكذا جاء فنه أيضا، أصيلا شعبيا لكنه التف فى ثوب حضارى متقدم للغاية.

لم ينشأ سيد درويش فى أسرة فنية ولم يجد أحدا يشجعه على السير فى اتجاه الفن، بل على العكس لقى العنت والتعنيف والإكراه على عمل أشياء لم يجد فيها إحساسه بذاته، وفى ظل ظروف معيشية غاية فى القسوة كان الفن بالنسبة لمثله ترفا لا يمكن لمسه.

حمل الفتى الصغير مسؤوليات أكثر من طاقته فقد توفى والده وهو فى السابعة، وحملته أسرته على الزواج المبكر فى السادسة عشرة من عمره، واضطرته تلك المسؤوليات إلى العمل مبكرا من أجل الأسرة الجديدة وهو لم يكمل تعليمه بعد.

فى هذه الظروف كان الفنى الصغير يبحث عن وسيلة للتعبير عما فى نفسه من ضغوط وعن أحلامه فى الحياة، فلم يجد أفضل من الموسيقى، وانجذب بحسه العالى إلى ما سمعه من أساتذته فى المدرسة وبدأ يبحث بنفسه عن مصادر أخرى لهذا الفن فأخذ يتردد على الأماكن التى تقدم الفنون فى مدينته الهادئة الإسكندرية، المحلى منها والأجنبى، ثم بدأ يردد ما حفظه على أسماع أصدقائه.

كان سيد درويش طالبا بالمعهد الدينى بمسجد أبى العباس المرسى الشهير، لكن أصدقاءه وجدوا فى الشيخ الصغير موهبة تستحق الاستماع إليها فدعوه لإحياء حفلاتهم العائلية، وسرعان ما انتشر الأمر فطلبه آخرون وعرضوا عليه أجرا مقابل ذلك فقبل

حاول الشيخ عندئذ العمل بالفن لكنه لم يفلح، ومن أعاجيب القدر أنه عندما استسلم لضغوط الحياة وبدأ يعمل كبنّاء لحساب أحد المقاولين فإذا بهذا العمل نفسه يقوده إلى أبواب الفن، فهاهو المقاول يكتشف فيه موهبة ذات فائدة عظيمة عندما سمعه يغنى وسط العمال وهم يرددون غناءه، لم يكن المقاول فنانا لكنه، تماما كشركات الإنتاج، ومن زاوية مصلحية بحتة، عرض على سيد درويش التفرغ للغناء للعمال بينما يحتفظ بنفس الأجر لما وجد أن غناءه أثناء العمل يزيد من حماس العمال ويجعلهم يعملون بلا كلل أو ملل، فاستراح الشيخ الصغير من عناء العمل وتفرغ للغناء.

فى معظم ما كتب ونشر عن سيد درويش اهتم الكتاب بتأصيل حياته والأحداث التى مر بها أكثر من اهتمامهم بموسيقاه، ويرجع ذلك إلى أن معظم من أرخوا لسيد درويش هم من غير الموسيقيين، أما الشأن الفنى فلم يحظ بالاهتمام الكافى، ونجد فى الفيلم السينمائى الوحيد الذى أنتج عن سيد درويش ضحالة تامة فى القصة والسيناريو والإخراج، بل وإساءة أيضا إلى شخص الفنان المبدع والثائر على الفساد والاستعباد، العاشق للوطن وللحرية، والغيور على فنه والمحترم له، والمجدد بل الباعث لنهضة فنية استمرت لعشرات السنين وألهمت أجيال كثيرة بعده، ورغم أن فنانا مثله يمكن أن نرى له عشرات الأفلام العظيمة دون أن يتكرر فيها مشهد واحد، ويكفيه ما قدمه من أوبريتات رائعة، أنتج بعضها على نفقته الخاصة.

ومما يدعو للدهشة أنه رغم اعتراف الجميع، من أهل الفن ومن خارجه، بفضل سيد درويش إلا أننا لا نرى أيا من أعماله تدرس أو تبحث فى معاهد الموسيقى، ومازالت المناهج الموسيقية الشرقية فى مصر رائدة الفنون تعتمد على التراث التركى فى معظمها.

وربما يقول قائل أن سيد درويش لم يترك ثروة أكاديمية يمكن أن تعين فى صياغة مناهج التعليم والتدريب، لكن الشيخ سيد ترك أكبر ثروة فنية فى تاريخ الموسيقى العربية على الإطلاق، ليس بالكم بل بالكيف، إذ أن كل لحن وكل قطعة تستحق الدراسة والتأمل، وفى أدواره العشرة نجد كل دور من مقام مختلف عرض فيه سيد درويش الكيفية المثلى لمعالجة نغمات هذا المقام.

وفى ألحان رواياته هناك أكثر من ٢٠٠ لحن لم تتكرر فيها جملة واحدة، وفيها من اختلاف المواقف ما يكفى لعرض كافة حالات الشعور الإنسانى وكيفية التعبير عنها أضاف مقاما موسيقيا جديدا (!) للموسيقى الشرقية أسماه الزنجران أبدع منه أحد أدواره، ولحن منهالأساتذة اللاحقون.

شرع فى تأليف كتاب موسيقى يضم نوت ألحانه، ومع انشغاله بتلك المهمة التاريخية لم ينس أن يكتب مقالاته فى الثقافة الموسيقية للصحف والمجلات يعلم وينور، وكان يوقع بإمضاء خادم الموسيقى سيد درويش.

ولكن لم يمهله القدر أكثر من ست سنوات هى كل عمره الفنى، فقد بدأ فى سن ٢٥ ورحل فى سن ٣١، ولم يكن ليتسنى له التفرغ لعملية أكاديمية وهو مشغول تماما بإنتاج أعظم ما أنتجته مصر من فن فى تاريخها الطويل.

لقد قام سيد درويش فى مصر بما قام به بيتهوفن فى ألمانيا، حيث صعد الاثنان، كل بموسيقاه، إلى القمة، وفى حين مهد لظهور بيتهوفن عمالقة مثل باخ وهايدن وموتسارت فقد ظهر سيد درويش بانقلاب كبير لم يسبقه تمهيد.

امتد تأثير سيد درويش إلى كامل المنطقة العربية عن طريق من ساروا على نهجه بعد رحيله، وقد عاصر سيد درويش أواخر العصر الرومانسى الأوربى الذى شهد آخر مؤلف عام ١٩٢٢ وهو جريج النرويجى، وترامت إلى مسامعه أعمال رواد الفن الموسيقى الأوربى حتى فيردى الإيطالى الذى صاغ أوبرا عايدة المصرية لحفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، وكان رغم أعجابه بأعمالهم لا يقلدهم، وإنما كانت موسيقاه معبرة تماما عن إحساس ومزاج الشعب المصرى الذى حرم طويلا من ممارسة الفنون الراقية بفضل الاستعمار التركى العثمانى الذى احتكر فن الموسيقى وصبغها بصبغته وقصر ممارستها على الطبقات الإقطاعية وأفراد الأسرالمالكة.

وتنوع إنتاج سيد درويش ليشمل أنماطا عديدة من التأليف الموسيقى حاول بها إثبات أن كل شيئ مكتوب يمكن أن يلحن ويغنى مامدامت هناك فكرة ورأى وموقف وإحساس، حتى الأنماط الأقدم استعملها فى أساليب جديدة، وما يهمنا هنا هو أن موسيقى هذا الفنان قد احتوت على قدر عال من القيم الفنية يجعلها جديرة بالدراسة والتحليل والتأصيل والتنميط، ونحن نشعر بينما نستمع إلى ألحانه أننا نستمع إلى أصول وليس إلى فروع أو تقليد.

مجلة (أفاق عربية) ملحق إضاءات: ملف عن سيد درويش بمناسبة ذكرى ميلاده ١٩٨٢.

مئوية سيد درويش: تاريخ جديد للموسيقى العربية

سليمان بختي

جدّد سيد درويش (١٨٩٢-١٩٢٣) اللحن العربي وخلصه من أمرين: ١- التخت التركي التقليدي و٢- تلحين الحرف والارتجالات المتكررة. كما أنه ارتبط بالشعب وقضايا الوطن والمجتمع وخصوصًا ثورة ١٩١٩ ورمزها الكبير سعد زغلول. أدخل البساطة والحياة وقوة التأليف إلى الغناء وإلى الأوبريت والمسرح الغنائي. ولا يزال سيد درويش في مئوية وفاته: المؤسس والنابغة والمجدد ومفخرة جيله، كما وصفه الرئيس جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠).

عندما ولد سيد درويش في عام ١٨٩٢ كان الإنكليز يسيطرون على مقدرات مصر. كانت ورشة والده بالقرب من البيت تنبعث منها أصوات الباعة والجوالين. لبث الطفل يصغي إلى تلك الأصوات المتآلفة ويأنس لها. أرسله والده إلى كتّاب حسن حلاوة وهناك كان تفتحه الأول. وهناك تعلم من مدرس الأناشيد سامي أفندي الدرس الأول في الموسيقى وحفظ الأناشيد. وفي السابعة من عمره تولى سيد درويش بتكليف من أستاذه مهمة تحفيظ الأناشيد للتلاميذ. وفي السنة عينها توفي والده فتولته والدته ملوك. انتقل إلى مدرسة شمس المدارس وهناك التقى بمدرس آخر للأناشيد هو نجيب فهمي الذي درس على يديه الموشحات والأناشيد، وأدرك أن اللحن لا ينفصل عن الكلمة. انتقل إلى المعهد الديني لتجويد القرآن وكان مقره مسجد أبي العباس وانضم إلى الفرقة الأولى ثم انتقل إلى مسجد الشوربجي. بدأ اللحن والنغم يستحوذ على عالمه. وراح يتردد إلى الموائد والأفراح والندوات في كوم الدكة ليستمع ويستزيد ويغتني. ذات مرة كتب الفنان عاصي الرحباني (١٩٢٣-١٩٨٦) "الفنان تندهلو حاجات شعبه".

كان العمال والفقراء والعربجية وعمال البناء والفلاحين بحاجة إلى صوت ولحن، وكان هذا الصوت هو سيد درويش. غنى لكل هؤلاء وأحس بفرحتهم بصوته. وعندما يؤوب إلى منزله في آخر الليل كانت تضيء أمامه أسماء المشاهير من الشيوخ والمنشدين والمقرئين مثل الشيخ أحمد ندا والشيخ إسماعيل سكر وغيرهما. ويحدوه الأمل أن يصبح واحدًا منهم. تزوج باكرًا في السادسة عشرة من عمره وراح يبحث عن مصدر جديد للرزق. انضم إلى فرقة كامل الأصيلي ولكن انفرط عقدها بعد حين. غنى في بعض المقاهي الليلية وليس في طبع الليالي الأمان. وجد عملاً مع مجموعة عمال البناء فانخرط فيها. لاحظ المقاول أن إنتاج العمال يرتفع وصوت سيد درويش يغني بينهم فأعفاه من العمل مقابل الغناء للعمال. ذات مرة صادف وجود الممثل أمين عطا الله قريبًا من البناء الذي يعمل فيه سيد درويش. أصغى إلى الصوت فأشار له أحد العمال أنه هناك واسمه سيد درويش. قرر عطا الله أن يضم درويش إلى فرقته التي يترأسها أخوه سليم عطا الله ومعها رحلة إلى سورية ولبنان. وهكذا من ورشة البناء إلى ورشة المسرح. وكانت أول رحلة يقوم بها خارج الإسكندرية. فشلت الرحلة رغم العروض التي قدمتها الفرقة في الصالات والمقاهي. ولكنها مكنت سيد درويش من الاستماع والتفاعل مع طراز جديد من الموسيقى، والمكسب الآخر اتصاله بالشيخ عثمان الموصلي (١٨٥٤-١٩٢٣) الذي تعلم منه سيد درويش الكثير.

زرعت تلك الرحلة في قلب سيد درويش الحلم بالمسرح والأغاني الجديدة التي سيلحنها بنفسه. عام ١٩١٢ ركب البحر ثانية إلى الشام لتبدأ منذ ذلك الوقت مرحلة الانتقال إلى التلحين من موشحات وأدوار وطقاطيق. ظل درويش في بلاد الشام حتى بداية الحرب العالمية الأولى. وأقام في الإسكندرية حتى نهاية الحرب حالما أن يبدأ مرحلة جديدة في القاهرة هذه المرة ومع المسرح الغنائي العربي. عمد بداية إلى تأليف فرقته الموسيقية الخاصة به كما أتقن العزف على العود. كان الشارع المصري يغلي بالتظاهرات والانتفاضات وكان لا بد أن يرافق ذلك انتفاضة موسيقية في اللحن والكلمة والشكل والمضمون. مستوحيًا من كلمات الزعيم الوطني مصطفى كامل نشيدًا غدا نشيدًا وطنيًا للبلاد وعنوانه "بلادي بلادي بلادي/ لك حبي وفؤادي". رد سيد درويش الاعتبار للكلمة المغناة، وأن تقال هي في الشارع والصالون وتلعب دورًا مع حركة الناس ومطالبها، أغنية بسيطة تستهدف المعنى والرسالة، سهلة الحفظ والأداء والانتشار. التقى سيد درويش الممثل جورج أبيض وفرقته الذي سجل إعجابه بأغنية "زوروني كل سنة مرة" وطلب إليه أن يلقنها إلى حامد مرسي ليقدمها بين الفصول. وإزاء النجاح الكبير قرر جورج أبيض أن يعهد إليه بتلحين مسرحياته الغنائية وبذلك دخلت الموسيقى إلى المسرح كمقوم أساسي في العمل الفني. خاض سيد درويش معركة جديدة وهي وقف تشويه الألحان في ارتجالاتها المبتذلة أحيانًا، وأن يصبح اللحن مطابقًا للنوتة الموسيقية، والعمل لبناء التصوير الموسيقي لمعاني الشعر. وانتقل بالموسيقى من مرحلة تلحين الحرف والآه إلى مرحلة الكلمة – اللحن.

رد سيد درويش الاعتبار للكلمة المغناة، وأن تقال هي هي في الشارع والصالون وتلعب دورًا مع حركة الناس ومطالبها، أغنية بسيطة تستهدف المعنى والرسالة، سهلة الحفظ والأداء والانتشار.

لم تكن بدايات سيد درويش في القاهرة متيسرة فهذا الموسيقي الذي حوّل الموسيقى إلى رغيف خبز كان لا يجد قوته اليومي. لجأ إلى الشيخ سلامة حجازي الذي آمن بموهبته وأقام له حفلاً خاصًا يعود ريعه لسيد درويش. لبث الشيخ سيد في القاهرة يحارب الفقر ويحارب موسيقى التطريب وأغاني التطريب والتسلية والفرفشة. لحّن لجورج أبيض مسرحية "فيروز شاه" وهي أول مسرحية ملحنة. ولكن المسرحية فشلت. رغم ذلك اتصل به نجيب الريحاني وكلفه بتلحين مقطوعات موسيقية استعراضية ونجحت الفكرة. وبدأت الفرق في القاهرة تتسابق عليه وتطلب ألحانه. لحّن لفرقة الريحاني "العشرة الطيبة"، ولفرقة علي الكسار "راحت عليك" أو "بنت الحاوي"، ولفرقة منيرة المهدية الفصل الأول ونصف الفصل الثاني من أوبريت "كليوباترا" و"مارك أنطونيو"، ولفرقة أولاد عكاشة "عبد الرحمن الناصر والدرة اليتيمة". أما لفرقته الخاصة فلحّن "شهرزاد". ويقدّر إنتاج سيد درويش في المسرح الغنائي بتلحين ما يقدر بـ ٢٠ مسرحية غنائية ومعها الأغاني التي تصور عذابات عمال البناء والفلاحين والصنايعية والعربجية والسقايين. وكانت الكلمة تتحد مع الموسيقى وجداول كلمات الأغاني تصب بين يديه من بديع خيري وبيرم التونسي ومحمد يونس القاضي وأمين صدقي وغيرهم. وعن طريق تفاعله ومشاهداته للمسرح الغنائي العالمي وارتياده دار الأوبرا واستماعه للفرق الأجنبية التي تؤدي المسرحيات العالمية استطاع سيد درويش إدخال تعدد التصويت الهارموني في مسرحياته الغنائية. قام بدور البطولة غناء وتمثيلاً في مسرحياته الثلاث: "العشرة الطيبة" كتابة محمد تيمور وأغاني بديع خيري، و"شهرزاد" و"الباروكة". في المسرح الغنائي جعل سيد درويش من الموسيقى رفيقة للقصيدة وبرزت معه القصيدة الغنائية الموسيقية وبات الفصل بين الشعر والموسيقى أمرًا مستحيلاً. صعد نجم سيد درويش في الشارع المصري حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي طلب إليه أن يلحن له نشيد "بني مصر" وفاز بالجائزة الأولى لمسابقة التلحين عام ١٩٢١. وكان قد ألّف ولحن تقديرًا لسعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ "عزك حياتنا/ ذلّك مماتنا/" و"قوم يا مصري مصر دايما بتناديك" و"يا بلح زغلولي" وغيرها.

عاش سيد درويش أجمل أيامه في حارة النصارى في الأزبكية القاهرة. ودعا والدته ملوك للسكن معه في القاهرة. وكانت أحب الأوقات لديه يقضيها في البيت يؤلف ويلحن ويستمع إلى صوت أمه وزوجته وولده كخلفية ألحانه. وفي منتصف شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٢٣ كانت رحلته الأخيرة إلى الاسكندرية. وفيما يشبه الحدس مشى سيد درويش في كل الأماكن التي أحبها في هذه المدينة، حي كوم الدكة وكتّاب حسن حلاوة وشمس المدارس ومسجد أبي العباس وقربه ذلك البناء الذي عمل فيه وخلفه الميناء والبحر، وكل الإسكندرية التي أحبها. شعر بشوق لرؤية شقيقته التي تقطن في محرم بك- شارع الأمير عمر. وظنته جاء ليسهر ويلحن ولكنه جاء للموت في فجر ذلك اليوم. وكان موته مفاجأة صادمة لعائلته ولمدينته ووطنه ولدنيا العرب. رحل وترك صوته وعوده وموسيقاه للناس والمدن والشوارع والوطن ولأجل بناء جيل جديد للموسيقى في الحضارة العربية. ضمه النمساويون والإيطاليون إلى أسماء الموسيقيين الخالدين في التاريخ. قال عنه رياض السنباطي: "لا عبد الوهاب ولا زكريا أحمد ولا القصبجي ولا أنا فعلنا شيئا بعد سيد درويش... إنه أستاذنا جميعًا". وقال عنه محمد عبد الوهاب: "قبله لم نسمع عن شيء اسمه ملحن. لقد خلق للملحن المصري الشخصية الملكية". وقال عنه عباس محمود العقاد: "أدخل عنصر الحياة والبساطة إلى التلحين والغناء بعد أن كان هذا الفن مُثقلا".

• عن موقع الضفة الثالثة

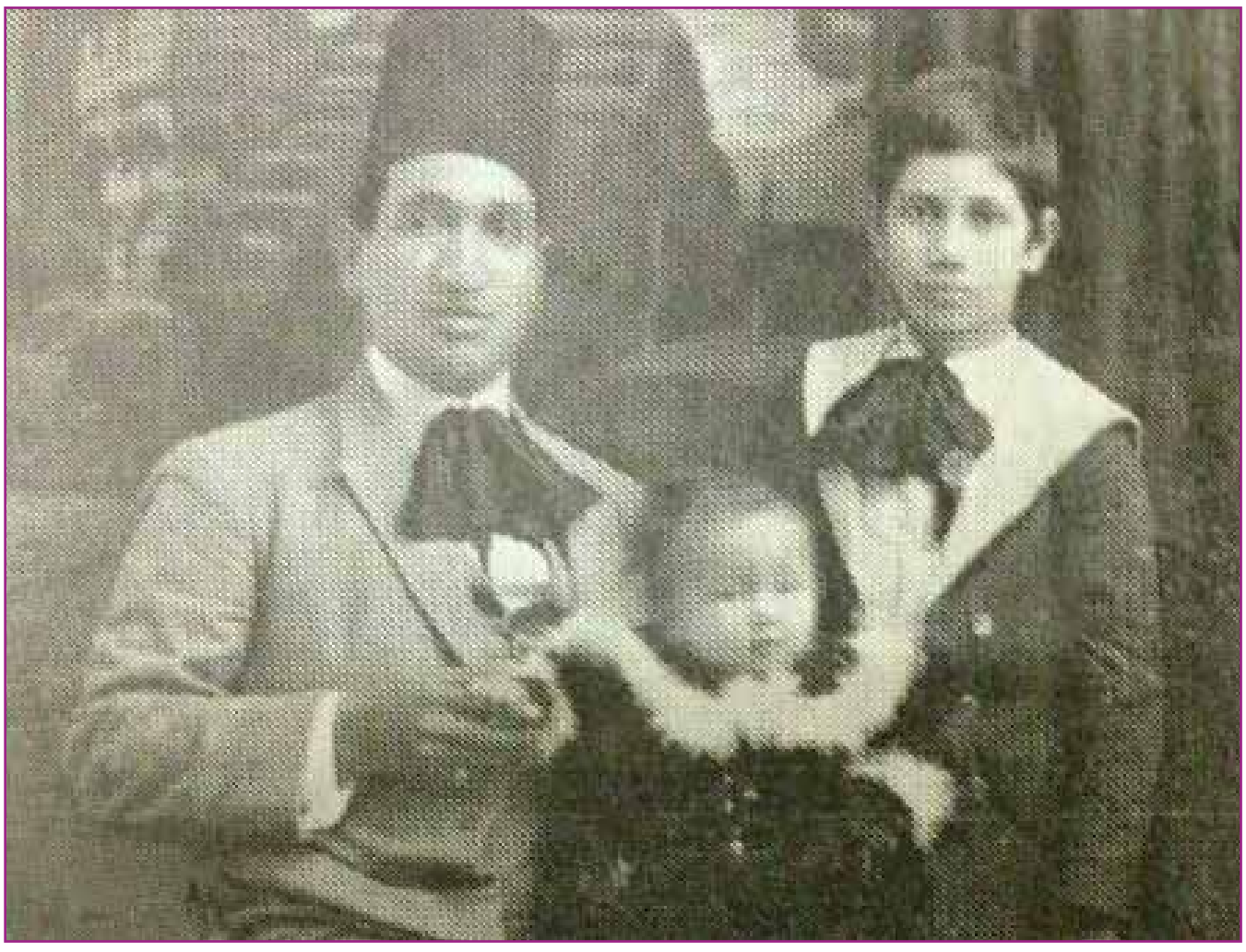

الشيخ سيد درويش وبعض البصمات العراقية على فنه

د. باسل يونس الخياط

يُعد الشيخ سيد درويش (١٨٩٢-١٩٢٣) أحد عمالقة الموسيقى العربية في القرن العشرين، وقد ترك آثارا فنية خالدة تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل.

ولد سيد درويش في الإسكندرية لعائلة فقيرة، وبدأ ينشد مع أصدقائه ألحان الشيخ سلامة حجازي والشيخ حسن الأزهري. والتحق بالمعهد الديني بالإسكندرية عام ١٩٠٥ ثم عمل في الغناء في المقاهي.

ترك دراسته وتزوج وهو في السادسة عشرة من العمر، وصار مسؤولا عن عائلة، فاشتغل مع الفرق الموسيقية، لكنه لم يوفق، فاضطر أن يشتغل عامل بناء (عامل صبّات)، وكان خلال العمل يرفع صوته بالغناء، مثيرا إعجاب العمال وأصحاب العمل. وصادف في أحد الأيام وجود الأخوين أمين وسليم عطا الله، وهما من أشهر المشتغلين بالفن، في مقهى قريب من الموقع الذي كان يعمل به سيد درويش، فاسترعى انتباههما ما في صوت هذا العامل من قدرة وجمال، واتفقا معه على أن يرافقهما في رحلة فنية إلى الشام في نهاية العام ١٩٠٨.

وفي العام ١٩٠٩ تعرَّف سيد درويش بالملا عثمان الموصلي (١٨٥٤-١٩٢٣م) في الشام وتتلمذ على يده، وكان عمر سيد درويش سبعة عشر عاما، حيث كان ضمن فرقة عطا الله الغنائية المصرية، وقد مكث سيد درويش في الشام عشرة أشهر. ثم زار سيد درويش لبنان مع فرقة (سليم عطا الله).

وفي العام ١٩١٢ قامت فرقة عطا الله برحلتها الثانية إلى الشام، ومكث سيد درويش مع أستاذه الملا عثمان الموصلي قرابة السنتين، وقد أتيحت الفرصة لسيد درويش لتعلم الموسيقى وأصولها بشكل أكبر على يد الملا عثمان وأخذ منه أصول الموشحاًت التركية والشامية والعربية. وقد ذكر الكاتب المصري محمد علي حماد أن تلك الرحلة كانت حجر الأساس في بناء شخصية سيد درويش الفنية واستفاد كثيرا من أستاذه الملا عثمان.

وعاد سيد درويش من الشام إلى الإسكندرية قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وأصبح يغني وينشد في المقاهي والأفراح. وعلى الرغم من ذكاء مؤلفاته، فقد حصل على شهرةٍ محدودة مِن خلال الغناء في المقاهي، حيث كان حضوره متوسطًا مقارنةً مع النجوم في زمنه مثل "صالح عبد الحي" و "زكي مراد".

ثمِ ذاع صيت سيد درويش في الأوساط الفنية بالقاهرة، وقَدِمَ الشيخ سلامة حجازي الذي كان ذو شهرة كبيرة ليحضَر إحدى حفلاته. فأعجب الشيخ جدًا بألحانه وصوته، وشجعه على القدوم إلى القاهرة ليقدِّمه للجمهور، لكنهم استقبلوه بالصفير كونه صغير السن، حينها خرج سلامة حجازي وقال لهم بأن هذا الشاب هو عبقري المستقبل.

بعد عودة سيد درويش أصابه حزنٌ شديد بسبب فشله، واستمر بالعمل في الإسكندرية في متجر للأثاث القديم خلال سنوات الحرب العالمية الأولى. ثًم انتشر اسمه كثيرًا في القاهرة بأسلوبه الجديد في التلحين، وكانت توجد فرقة الممثل الكبير جورج أبيض الذي طلب من سيد درويش أن يلحن له أول أوبريت باسم (فيروز شاه) ودعاه من الإسكندرية.

وكان العام ١٩١٨ نقطة تحول في حياة سيد درويش؛ فبعد الكثير من الإخفاقات في الغناء بالمقاهي، قرّر أن ينتقل إلى القاهرة، حيث تعرَّف على شخصيات مهمة، ولا سيّما نجيب الريحاني، الذي كان يمتلك فرقةً مسرح في القاهرة.

ونجيب الريحاني (١٨٨٩-١٩٤٩م)، هو مُمثل فُكاهي مصري من عائلة مسيحية عراقية من الموصل؛ ومن هذه العائلة الطبيبة المشهورة سيرانوش ناصر الريحاني (١٩٢٠-٢٠١٢). ويُعد نجيب الريحاني أحد أبرز رُوّاد المسرح والسينما في الوطن العربي عُمومًا ومصر خُصوصًا، ومن أشهر الكوميديين في تاريخ الفُنون المرئيّة العربيّة.

التزم نجيب الريحاني بسيد درويش ودعمه، فبدأ اسم سيد درويش يلمع ويزداد إنتاجه، وقام سيد درويش بالتلحين لفرقة نجيب الريحاني وفرقة جورج أبيض وفرقة علي الكسار.

وعقب الحرب العالمية الأولى اندلعت ثورة ١٩١٩ في مصر بقيادة حزب الوفد المصري الذي كان يرأسه سعد زغلول، كنتيجة لتذمّر الشعب المصري من الاحتلال الإنجليزي. وبدأت الأحداث في القاهرة والإسكندرية وسقط الشهداء واستمرت الثورة إلى عام ١٩٢٢.

وخلال الثورة سطع نجم سيد درويش كثيرًا عقب غنائه وتلحينه لأغنية "قوم يا مصري" التي حققت شهرةً ونجاحًا لا مثيل له في الشارع المصري.

لقد أدخل سيد درويش الغناء البوليفوني في الموسيقى المصرية للمرة الأولى، حيث قام بتلحين أوبريت "العشرة الطيبة" مع فرقة نجيب الريحاني وأوبريت "شهرزاد والبروكة".

وهناك عددٌ من الألحان التي تألّفت للريحاني أو الكسار، وهي الآن جزءٌ من الفولكلور المصري، ومن هذه الأغنيات "سالمة يا سلامة" و "زوروني كل سنة مرة" و "الحلوة دي" و "اهو دا اللى صار".

ومن أنجح الأعمال التي نتجت عن تعاون نجيب ريحاني مع سيد درويش أغنية: "سالمة يا سلامة" الشهيرة والتي لحنها سيد درويش عام ١٩١٩م لرواية "قولوله"، وقدمتها فرقة نجيب الريحاني، وألف كلماتها بديع خيري. وتتحدث الأغنية عن مشاعر المصريين بالغربة أثناء بعدهم عن بلدهم، وعن رضاهم بالحياة سواءً كانوا أغنياء أو فقراء، وعن صبرهم ومثابرتهم في الحرب وسعيهم للسلام.

لقد أعادت غناء هذه الأغنية وأصدرتها مرة أخرى المغنية الإيطالية المصرية داليدا عام ١٩٧٧م باللهجة المصرية، ثم باللغة الفرنسية، وحققت شهرة واسعة في العالم العربي وأوروبا أكثر من الأغنية الأصلية، فقام العديد من المطربين العرب والأوروبيون بغنائها مرة أخرى بتوزيعات مختلفة. وتم تسجيل الأغنية بخمسة لغات، وغناها العديد من المطربين والفرق الأجنبية، مثل ألابينا، وشانتال شمندي، وجان ميشال جار، وزينت سالي.

وفي العاشر من سبتمبر ١٩٢٣ رحل سيد درويش وهو في عز الشباب وله من العمر إحدى وثلاثون سنة، والرواية الشبه مؤكدة أن سبب الوفاة هو تسمم مُدبر من الإنجليز أو الملك فؤاد بسبب أغاني سيد درويش التي تحث الشعب على الثورة، رحمه الله.

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

سيد درويش.. ذاكرة شخصية

محمود عبد الشكور

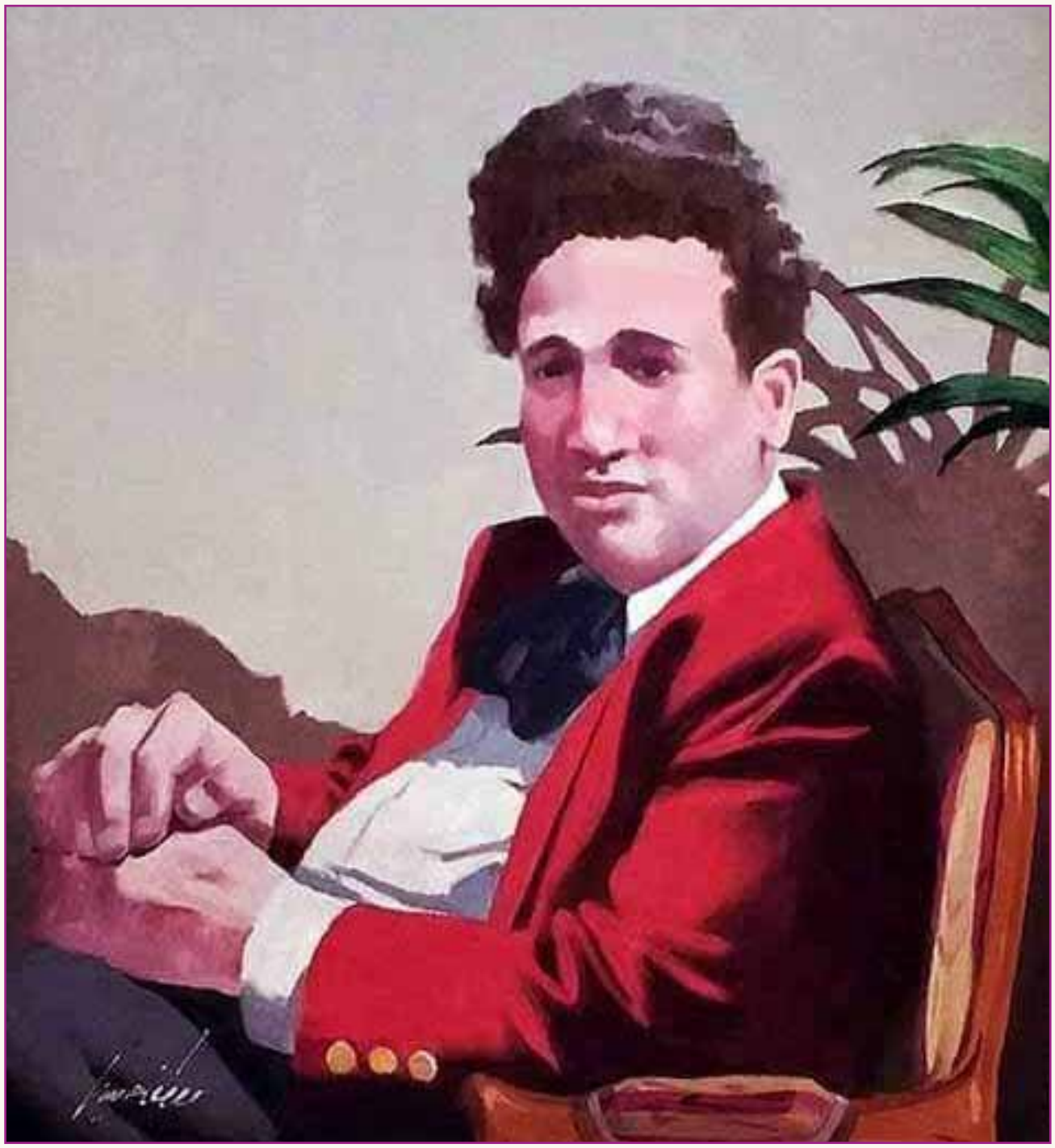

يدهشنى فى ذكرى مرور ١٠٠ عام على وفاة سيد درويش، أن ما أتذكره عنه يرتبط تقريبا بكل مراحل حياتى، وكأنه صار جزءا من سيرتى، مثلما صار جزءا من سيرة الوطن.

أول مـا أتذكـره أن كتاب "سيد درويش"، الصادر فى سلسلة "أعلام العرب"، لمؤلفه العلامة الرائد د. محمود الحفنـى، كان من أوائـل الكتب التى قرأتهـا، فى بداية المرحلة الإعدادية، بل لعلـه كان من الكتب المفضلة عند أبى أيضا، فقـد كنت أراه يطالع بعض فصوله، ويعود إلى كلمات أغنيات مكتوبة فيه، منها مثلا أغنية "دنجى دنجى"، من كلمات بديع خيرى.

ما زلـت أتذكر حتـى الآن حكايات من الكتـاب، منها ما حـكاه نجيـب الريحانى عـن واقعـة غضب فيهـا سيد درويش، وثـار وانفعل، فلما سمـع الشيخ سيد صوت عصفـور كنـاريـا بالصدفـة، راح هذا الغضـب، وكأنك ألقيـت مـاء علـى نـيران مشتعلـة، وكان هـذا التحول موضع تنـدر الريحانى الدائم، فيقـول للشيخ سيد إذا ثار وغضـب: "طيـب وأجيبلك منين دلوقتـى عصفور كناريا يا شيخ سيد؟".

ظلـت فى ذاكرتى طويلا مـن الكتاب صور تمثل الشيخ سيد، سواء فـى زيه الأزهرى، أو فى بدلته الإفرنجية، مع بعض الوثائق، مثل عقود الأغنيات والأسطوانات، ولفتنى جدا أنه كان يوقع بلقب "الشيخ" سيد درويش. لم أنسَ أبدا صورة فى نهاية الكتاب لقبر سيد درويش، وقـد نقشوا عليه هذين البيتين: "يا زائرى لا تنسنى / مـن دعوة لى صالحة/ وارفع يديـك إلى السما / واقرأ لروحى الفاتحة".

فى سـن مراهقتى، أطل سيد درويـش من جديد، ولكن هـذه المرة بعرض فيلـم روائى طويـل يحمـل اسمه، مـن إنتـاج ١٩٦٦، وإخـراج أحمـد بدرخـان، وبطولة كرم مطاوع وهنـد رستم، وكان أجمل مـا فيه بالنسبة لى أن أشاهـد مـا قرأته من تفاصيل فـى كتاب الحفنى، وأن أستمـع إلى الأغنيـات، وخصوصا أن بعضها كان بصـوت الطفـل هانـى شاكر، وبعضهـا كان بصـوت إسماعيـل شبانـة، شقيـق عبدالحليم حافـظ، مطربنا المفضل.

عرفـت فيمـا بعـد أن الفيلـم أثـار غضـب أسـرة سيـد درويـش، لأنه عرض بصراحـة لمغامراتـه النسائية، وفى القلب منها علاقتـه الشهيرة مع جليلة، كما عرض الفيلم لتعاطى درويش للمخدرات، ورجح موته بجرعة كوكايـين زائـدة، وكلها معالجات جريئـة دراميا، تقدم سـيرة شخصيـة عظيمـة، بـدون صفـات ملائكية كما تعودنـا، ويكفـى أن نقـارن هذه الجـرأة بفيلـم سابق لأحمـد بدرخـان نفسـه، عرض فـى ديسمـبر ١٩٥٢، بعنـوان "مصطفـى كامل"، عن سـيرة الزعيم العظيم، ومـن بطولة "الأستاذ أنور أحمـد"، هكذا ذكروا اسمه على أحد الأفيشات، وكان ذلك دوره الأول والأخير.

مصطفـى كامـل فـى الفيلـم مـلاك وشهيـد الوطنيـة، وحتى قصـة حبه رومانسية وطاهرة، وحبيبته اسمها "نبيلـة"، وقصة الفيلم كتبها "المجاهد الكبير" فتحى رضوان.

عاد سيـد درويش فى نهاية حقبـة السبعينيات، عندما غـيروا النشيد الوطنى، من "واللـه زمان يا سلاحى"، إلى "بلادى بلادى"، وما زلـت أتذكر استقبال الرئيس السادات بعد عودته من توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيليـة، وظهـور عبدالوهـاب ببدلـة عسكريـة، حامـلا رتبة اللواء، وهو يقـود الفرقة الموسيقية، التى تقدم نشيد "بلادى بلادى"، بتوزيع جديد لم يعجبنى، فقـد كان بطيئا عن الأصل، الذى كنا نردده بحماس فى حصة الموسيقى.

قـرب نهايـة المرحلـة الثانويـة، أطـل درويـش مـرة أخـرى، ولكن هذه المرة من خلال حفيـده إيمان البحر درويـش، الـذى قدم فـى حفلـة تليفزيونيـة لا تنسى، أغنيـة "مخسوبكو انداس صبـح محتاس"، فانتشرت بصورة خارقة، وهى نفس الأغنية التى استقبلتنى من ريكـوردر عالى الصوت، وقت وصولى إلى محطة باب الحديـد، لألتحـق بكلية الإعلام، وقـد ظللت لفترة أظن أنها أغنية يونانية مترجمة!

فـى الجامعة بـدأت فـى الاستماع المنهج لـتراث سيد درويـش، سواء عبر بعـض شرائط الكاسيـت، أو من خـلال مشاهدة حلقـات برنامج "الموسيقـى العربية"، وبرنامج "ألحان زمـان"، أو حتى عبر زملاء اشتركوا فى كورال الجامعة، وفتنت على نحو خاص بمونولوج "والله تستاهل يا قلبى"، الذى يهزنى من الأعماق حتى اليوم.

شغفـت بالرجل هامشا ومتنا، حيـاة وموسيقى، فشلا ونجاحا. وفكـرت كثيرا فى مفارقة وفاته وهو فى سن الشباب، وفى سنوات عطائه القصيرة كملحن.

هل كان يفضل، لو خيروه، حياة طويلة فارغة؟ أم حياة قصيرة ثرية تخلده؟

يـروى عـن درويـش أنه لم يكـن فى عيش رغـد يكافئ شهرتـه، ويحكى رفيـق عمره الشاعـر يونس القاضى واقعـة عجيبـة، فيقول: "قابلـت الشيخ سيـد درويش فـى حـارة العمـرى بشارع محمـد على، فقلـت لنفسى آخـد فلوس منه، لأننى كنت فى ظـرف عائلى، ومشينا نتكلـم لحد دكان سمعان، وحب يقعد ع القهوة، قلت له: معاك فلوس؟ قاللى: لأ، قلت له: ومـين سمعك؟، فقال: أفتشـك، فتشـ مالقاش معايـا حاجـة، وكان كل اللـى ماشى بيشاور علينا ويقولوا: "ده الشيخ يونس، وده الشيـخ سيد"، قلـت للشيخ سيد: وبعديـن، ده احنا ما نسواش تعريفة! فشـاور لنا واحد وكان بيسلم علينا، فندهله الشيخ سيد درويش وقال له: إنت عارفنى؟ قال له: أيوة إنـت الشيخ سيد درويش، وده الشيخ يونس القاضـى، فقـال لـه الشيخ سيـد: معاكش قرش صاغ سلـف؟ الراجـل اندهش، وفهـم إنه بيهـزر وياه، وخد بعضه وجرى، قلت له: تعالى نقعد على القهوة اللى أنا باقعد عليهـا، أجيبلك كل حاجـة ويبقالهم".. "ومشينا للبـاب البحـرى لحديقـة الأزبكيـة، وقلت له إيـه رأيك لـو عملنـا دور عـن حالتنا اللـى احنا فيهـا؟! وقلت له: "ضيعت مستقبل حياتى"، وكنت أقول الشطرة وهوه يلحنها، وهكذا، واحنـا بنلف حوالين حديقة الأزبكية، وخلصنـا الأغنية، وذهبت إلى منزلى، وفى عام ١٩٢٣ مـا لقيناش حـد يغنيها، فغناها سيـد درويش بصوته، وخلدت"..

اختار درويش الخلود، فكان له ما أراد.

• عن صحيفة الشروق